أصناف الناس

في

الليل

تأليف: الشيخ حيدر اليعقوبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمدٍ وآله الطاهرين.

ورد في الحديث عن الصادق (ع): (يقوم الناس من فُرشهم على ثلاثة أصناف: صنف له ولا عليه، وصنف عليه ولا له، وصنف لا عليه ولا له. فأما الصنف الذي له ولا عليه فيقوم من منامه فيتوضأ ويصلي ويذكر الله عز وجل ،فذلك الذي له ولا عليه. واما الصنف الثاني فلم يزل في معصية الله عز وجل فذلك الذي عليه ولا له. واما الصنف الثالث فلم يزل نائماً حتى أصبح، فذلك الذي لا عليه ولا له).

وفي الحقيقة فقد أحببت في هذا البحث الموجز أن استعرض أصناف الناس من جهة أحوالهم في الليل؛ بمعنى كيف يقضي كل صنف منهم ليلته، لكي يتعلم الفرد الهادف كيف يستغل ليله فيما هو مفيد؛ ولكي يراقب الناس أبناءهم حينما يبسط الليل جناحيه على الأفق ،ويذرُ رماد النعاس في عيون العالمين. فإن الليل ساترٌ رهيب، وغطاء عجيب، له جناحان واسعان، يستر أحدهما عباد الله الصالحين، وهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. ويستر الجناح الآخر شرار الخلق ممن يقضون

ليلهم بالفساد والموبقات والمحرمات؛ فشتّان بين الفريقين، فريق الجنة وفريق النار، وما أعجب ظلمة الليل وهي تجمع المتناقضين، وتضم المتعاكسين.

ولعل بالإمكان أن نعرف شخصية الفرد وميوله العامة من خلال كيفية قضائه لليل ،كما ان الفرد نفسه يستطيع ان يقيّم نفسه ويميز سريرته من خلال ملاحظة حاله في الليل.

وهكذا فإن اختيارنا لهذا المبحث يتضمن عدة فوائد ومصالح؛ كما انه يتني على جملة من الأسباب والدواعي، سيدركها القارئ الفطن بعد إكمال الكتاب بإذنه تعالى.

عموماً فإن الليل قد يقضى بالنوم كما هو الأعم الغالب، وقد يقضى بالسهر، وهذا السهر قد يكون إيجابياً، وقد يكون سلبياً، فتكون مباحث كتابنا المتواضع هذا ثلاثة.

المبحث الأول

النوم في الليل

لا يخفى ان الإنسان بحاجة تكوينية للنوم، والمنقول عن الأطباء وذوي الاختصاص انه يكفي ان ينام الإنسان (٥-٦) ساعات في اليوم بحسب الحالات الطبيعية الاعتيادية.

وقد وردت في القرآن الكريم عدة آيات تؤكد هذه الحاجة، حيث يقول الله عز وجل:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿يونس : ٦٧﴾

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ (الأنعام : ٩٦)

فالسكن بمعنى الراحة والاستقرار واسترجاع القوة، وهذا كله يحصل بعملية النوم.

نعم يمكن ان نفهم من السكن هنا السكينة وهي الراحة المعنوية او الخشوع او الطمأنينة القلبية، التي تحصل من العبادة الممكنة في الليل، وهي بالتأكيد تعطي الراحة والاستقرار وتعيد النشاط

والقوة ،خصوصاً إذا كانت لا تتعارض مع مقدار ما يحتاجه الفرد فعلاً من النوم. وقد ورد في الحديث في حكمة النوم (فيه راحة البدن وإجمام قواه).

ثم ان عملية النوم قد تكون مأجورة ومقدرة عند الله عز وجل، مع انها حاجة تكوينية للفرد تفرضها عليه تركيبته البايلوجية العامة (النوعية) او الخاصة (الشخصية). وذلك يتصور من عدة جهات:

أولها- إذا كان النوم قد حصل بعد جهد او عمل يحبه الله ويرضاه، باعتبار ان النوم أصبح من آثار ومسبّبات ذلك العمل، وكل آثار العمل الصالح صالحة ومباركة.

وقد ورد في قوله عز وجل ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيكُم مِنْ بَعدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغشَى طَائِفَةً مِنكُم﴾ (آل عمران: ١٥٤)

فالنعاس والنوم يكونان نعمة وهدية من رب العالمين تنزل على من جدّ واجتهد في يومه ونهاره بما يرضي الله عز وجل، مهما كان عمله، ومهما كان جهده.

ثانيها- إذا كان النوم بعنوان الاستعداد والتأهب ليوم جديد، ومن باب إعداد العدة وتجهيز القوة للعمل الصالح، فإن مثل هذا النوم يكون مباركاً وموفقاً لأنه يدخل في مقدمات الصلاح،

ومقدمات الصلاح مرضية عند الله عز وجل، حتى أنهم ذكروا أن مقدمة الواجب واجبة، ومقدمة المندوب مندوبة، وهكذا. فإذا توقف عمله في الصباح مثلاً على ان ينام مقداراً معيناً في ليلته وقصد بنومه هذا المعنى، فإنه يثاب عليه بإذن الله عز وجل.

ثالثها- إذا كان النوم بعنوان إعطاء الجسم او العقل حاجته الضرورية من الراحة، بغضّ النظر عن العنوانين السابقين. فإن الإنسان مطالب شرعاً وعقلاً بحماية نفسه من الضرر، ولا يحق له إيذاء نفسه بلا مبرر، فإذا نام بهذا القصد فهو أيضاً مأجور ومثاب إن شاء الله تعالى.

رابعها- ان يؤدي المستحبات قبل النوم، من قبيل الوضوء او التيمم ولو بدثاره وغطائه، او قراءة بعض الآيات، او بعض التسبيحات ،او التوجه جهة القبلة عند النوم، او نحو ذلك مما هو مستحب قبل النوم أو في أثنائه .. (انظر البحار ج٧٣/ص١٧٨ ومستدرك سفينة البحار ١٩٠/١٠ عن آداب السهر والنوم وأحوالهما).

وفي بعض الروايات ان الأنبياء ينامون على القفا (أي على ظهورهم)، والمؤمنين ينامون على جهة اليمين مستقبلي القبلة، والملوك وأبناءهم ينامون على اليسار.

وقد ورد في بعض الروايات عن النبي (ص) انه من بات على طهر فكأنما أحيا الليل، وفي رواية أخرى وان استطعت ان تكون بالليل والنهار على طهارة فافعل، فإنك تكون إذا مت على طهارة شهيداً.

أقول: ما أيسر ذلك وما أعظم ثوابه.

وهكذا فإن النوم يمكن ان يُتصور فيه الصلاح والثواب، مع أن أكثر الناس تنام وتستيقظ بدون هدف وبدون قصد فهذا نوم الغفلة والسذاجة؛ لأنهم يفوّتون الفرصة من بين أيديهم، ويضيعون الثواب من حيث لا يعرفون ولا يفهمون، فأي حسرة وندامة سيشعرون بها يوم يعرفون ويفهمون؟!.

هناك صنف آخر من الناس ينام من شدة فراغه وكسله، فهو يؤذي نفسه من حيث لا يشعر، إذ ورد في الحديث عن المعصومين (ع) ما مضمونه أريحوا أنفسكم بالتعب، ولا تتعبوها بالراحة؛ وورد أيضاً ان الله يبغض الشاب الفارغ. وفي الحديث عن الصادق (ع) (إن الله يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ).

ولطالما عجبت ممن يدعي الفراغ، واستغربت لحاله، فأين هو الوقت الكافي، وهذا الزمان يمر من بين أيدينا ونحن مسئولون عنه؛ لأنه فرصتنا في النجاة؛ وطريقنا نحو الكمال؛ فبمقدار

ما نستغل وقتنا بالطاعات، ونستفيد من ساعاتنا بالصالحات نكون قد خدمنا أنفسنا، وحصلنا على جواز المرور على الصراط المستقيم.

الانسان الفارغ لا يحس بالمسئولية تجاه نفسه وتجاه الآخرين؛ وهو تائه لا يعرف ما يضره ولا ما ينفعه، وإلا لأدرك ان الوقت قصير، والتكاليف كثيرة ومتنوعة ،وانما يحتاج الامر الى وعي وتفقه، ودراية وتبصّر في الدين.

وانما يقبل الله عذر من كان قاصراً لا مقصراً؛ وانما يتقبل الله ممن حاول بمقدار ما يستطيع، لأنه تعالى يعلم ان الإنسان لا يقدر على استيعاب فرصته بالكامل، ولذلك سمي يوم القيامة بيوم التغابن؛ لأن كل إنسان يتمنى يومئذٍ أن يكون قد تكامل اكثر واكثر، وقد ورد ان (حسنات الابرار سيئات المقربين) فمن يصلي عشر ركعات مستحبة في اليوم هو من الأبرار من هذه الناحية؛ ولكن (المقرَّب) قد يستغفر الله عز وجل اذا لم يصلِّ إلا عشرة ركعات مستحبة مثلاً؛ لأنه يشعر بأن تكليفه أكبر من ذلك.

المبحث الثاني
السهر السلبي في الليل

السهر السلبي نريد به ذلك السهر الذي لا يترتب عليه ثواب وأجر، ولا يكون مباركاً، سواء كان مباحاً أو كان محرماً.
وهذا يعني أننا سنتحدث ضمن محورين:

المحور الأول- السهر المباح:
وهذا له عدة صور أهمها ما يلي:

١- السهر لعدم القدرة على النوم؛ فهو يسهر لأنه لا يقدر على النوم؛ حيث يتقلب البعض في فراشهم، أو يتمدد مرة وينهض أخرى، أو يتمشى ذهاباً وإياباً، بدون سبب، وبدون علة.

ويمكن للفرد في هذه الحالة ان يستثمر جهده وسهره في شيء ينفع، فيقرأ كتاباً، أو يستمع الى دعاء، أو يسبح أو يتلو القرآن أو نحو ذلك مما يمكن ان يقضي به الوقت، ويصرف به جهده، فيكون ذلك

مقدمة لحصول التعب او الراحة النفسية ،وكلاهما سبب نوعي لتحقق النعاس ثم النوم، وقد ورد في بعض الأحاديث ما مضمونه ان التعب يريح الإنسان.

كما انه سيحصل على ثواب العبادة وقيام الليل وان لم يكن قاصداً له بالأصل، وسيتحول سهره الى عمليـــــــة إيجابيـــــــة ومباركـــــــة.

أما اذا اقتصر على الرواح والمجيء، او التقلب في فراشه بدون جهد مندوب او مشروع؛ فسيكون قد ضيّع وقته سلبياً فلا هو نائم فيستريح، ولا هو قائم فيستفيد.

٢- السهر للانشغال بأمور فارغة لا فائدة فيها، من قبيل الأحاديث الفارغة او اللعب او اللهو والمزاح او مشاهدة برامج التسلية او الأفلام التلفزيونية غير المحرمة ونحو ذلك من الأمور التي لا طائل منها رغم انهـــــا مباحـــــة في نفـــــسها.

فهذه كلها مضيعة للوقت، ويصرف الجهد فيها بدون محصلة واقعية؛ وستكون مجالسهم هذه حسرة عليهم لأنها خالية من ذكر الله، خالية من الطاعات، خالية من المنافع والفوائد الحقيقية.

وقد ورد في بعض الأحاديث ان (نوم العاقل أفضل من سهر الجاهل)؛ لأن العاقل ينام ليستعد ليومه الجديد، او ينام لأنه تعب فاستحق الراحة؛ اما الجاهل فإنه يسهر بدون وعي؛ وبدون فائدة؛ فصار نوم العاقل خير من سهر هذا الجاهل.

٣- السهر للانشغال بمشكلة او عارض معين؛ وهذا في الحقيقة خارج عن الإرادة غالباً؛ فلا يكون سلبياً إلا إذا لم يستغله الفرد للتقرب الى الله عز وجل؛ بأن يحتسبه عنده عز وجل ويصبر عليه، ويهوِّنه لأنه بعين الله رب العالمين.

ولعل في التوكل والتسليم والرضا خير بلسم ودواء لمثل هذا السهر لطارئ؛ لأنه سيرمي حمله بين يدي الله ويترك الأمور والمشاكل والعوارض الى رحمة الله وحسن تدبيره. وما خاب من توكل على الله وسلّم إليه أموره، وعندئذٍ يكون سهره مأجوراً ومباركاً ويصير إيجابياً بفضل الله ورحمته، وقد ورد في الحديث (سهر ليله من مرض أو وجع أفضل وأعظم أجراً من عبادة سنة). فهو تعويض إلهي على صبر الإنسان في الامتحان.

كما أنه يستطيع أن يشغل نفسه بالدعاء او العبادة او

الاستغفار او التسبيح لأجل حل مشكلته، ورفع الأذى والسوء عنه، حيث ورد في فضل ليلة الجمعة مثلا انه ينادي ملك بأمر الله عز وجل (ألا عبد مؤمن يدعوني لآخرته ودنياه قبل طلوع الفجر فأجيبه، ألا عبد مؤمن يتوب إليّ من ذنوبه قبل طلوع الفجر فأتوب عليه، ألا عبد مؤمن قد قتّرت عليه رزقه فيسألني الزيادة في رزقه قبل طلوع الفجر فأزيده وأوسّع عليه، ألا عبد مؤمن سقيم فيسألني ان أشفيه قبل طلوع الفجر فأعافيه. ألا عبد مؤمن مغموم محبوس يسألني ان أطلقه من حبسه وأفرّج عنه قبل طلوع الفجر فأطلقه وأخلي سبيله. ألا عبد مؤمن مظلوم يسألني أن آخذ له بظلامته قبل طلوع الفجر فأنتصر له وآخذ بظلامته) إلى آخر الحديث الشريف.

فإذا كان باب الرحمن واسعاً الى هذا الحد، وإذا كان أقرب الينا من حبل الوريد؛ فلماذا لا نلجأ إليه بالدعاء والاستغاثة والرجاء لنجعل ليلتنا مأجورة ومباركة، ليكون سهرنا إيجابياً ونافعاً؟! .

نعم إذا كان حال الفرد بدرجة لا يمكن معها أن يتحمل الدعاء ونحوه، أو يكون في حرج من هذه الناحية، فعندئذ يناله الأجر والثواب كما عرفت في الرواية السابقة (أفضل وأعظم أجراً من عبادة سنة).

المحور الثاني- السهر المحرم

وهذا له عدة صور والعياذ بالله، أهمها ما يأتي:

١- السهر امام التلفزيون او الستلايت او الفديو او الانترنت او نحوها من الأجهزة التي يساء استخدامها مع الأسف، فتتحول عند هؤلاء الى أجهزة شيطانية وابواب نحو الفساد وطرق الى جهنم.

ومن العجيب ان ترى في ظلمة الليل وعتمته شخصاً يتقلب في مشاهد المفاسد والشهوات الدنيئة، وهو أمام الستلايت او الانترنت، غير مبالٍ بدينه ولا مكترث لعاقبته، وكأنه حيوان بل أدنى من الحيوان. في وقت ترى فيه شخصاً آخر في مكان آخر يجلس أيضاً امام الستلايت او الانترنت ولكنه يستمع الى أدعية حزينة تقربه الى الخالق عز وجل، او يستمع مجالس حسينية او مراثي هادفة تقربه الى المعصومين (ع)، وتجعله يعيش سيرتهم الشريفة بما فيها من أفراح وأحزان ؛ فشتان بين هذين الشخصين، وأين الثريا واين الثرى.

وفي الحقيقة فإننا نود هنا ان ننصح المؤمنين بأن لا

يغفلوا عن أنفسهم وأهليهم وأبنائهم من خطر مثل هذه الأجهزة ذات الاستخدام المشترك، وان يكونوا واعين حذرين في استخدامها، وان يراقبوا أولادهم من هذه الناحية، كما ان المفروض بهم ان يضعوا مثل هذه الأجهزة في الأماكن العامة في البيت ،بحيث لا ينعزل المستخدم عن الآخرين ،وانما يكون في معرض مرورهم واطلاعهم عليه.

على الآباء والأمهات والكبار عموماً ان يكونوا دقيقين في استخدام هذه الأجهزة ليكونوا نماذج إيجابية تظل محفوظة في ذاكرة الصغار، فإن الصغار يتأثرون بالأفعال أكثر مما يتأثرون بالأقوال والنصائح.

كذلك نود ان نقول كلمة مختصرة لهؤلاء الذين يلهثون خلف المناظر الفاسدة في مثل تلك الأجهزة، نقول لهم انهم قد يموتون في أي لحظة، فهل يقبلون لأنفسهم أن يموتوا وتزهق أرواحهم على هذه الصورة؛ فيتعرضون للفضيحة والهوان في الدنيا والآخرة.

وقد لا يسعفهم الوقت للتوبة او الاستغفار، وقد لا يوفقهم الله لذلك لأنهم قد تعرّضوا للمعصية وإسخاط خالقهم وربهم عز وجل. وكيف يتوقع أحدهم ان يباركه الله ويرحمه

وهو يشاهده على هذه الحال القذرة التي يستحي منها الإنسان نفسه امام الآخرين. ولئن ستره الليل عن الخلق فإنه لا يستره عن رب العالمين الذي يقول في قرآنه الكريم: ﴿أَلَمْ يَعلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ (العلق: ١٤) ﴿وَأَنْ لَيسَ للإِنسَانِ إِلا ما سَعَى، وأَنَّ سَعيَهُ سَوفَ يُرى، ثُمَّ يُجزَاهُ الجَزَاءَ الأوفَى﴾ (النجم: ٣٩-٤١).

٢- السهر بالانشغال بالشهوات المحرمة أصلاً ،من قبيل الزنا وشرب الخمر أو لعب القمار ونحوها من الموبقات والفواحش. ومثل هؤلاء يضيفون الى أفعالهم القبيحة هذه ،جريمة أخرى تزيد من جرمهم، وتزيد من عذابهم، فإن لليل حرمة خاصة لا يجوز هتكها، تماماً كما لا يجوز هتك حرمة شهر رمضان او نهار الجمعة او نحوها من الأوقات، وتماماً كما لا يجوز هتك حرمة بعض الأماكن والمشاهد المقدسة ونحوها.

فمثل هذه الأوقات والأماكن له خصوصيتها اما باعتبار شرفها وقدسيتها في نفسها ،او باعتبار ما ينبغي ان يؤدى فيها من الطاعات؛ فيكون ارتكاب الحرام فيها جرأة إضافية وزيادة في التعدي بارتكاب

الموبقات.

وقـد ذكرنـا سـابقاً ان الله تعـالى خلـق النـوم للراحـة الـضرورية والـسكن الـلازم للإنـسان، فـلا يجـوز هتـك هـذه النعمة الإلهية ومقابلتها بالسيئات والمعاصي. كما اننا سنذكر ان الليل فرصة للمخلصين وفرصة للعاشقين، الـذين توجهـوا بإخلاصـهم وعـشقهم لخـالقهم ومـولاهم عـز وجـل، فهـي لحظات قدسية لا يجوز ان تدنسها آثام النفوس الضعيفة.

٣- سهر العـصابات العدوانيـة ،الـتي تتستر بالليـل لإيـذاء العباد وإرهـابهم ، بالـسرقة أو الإخافـة او الاعتـداء او قطـع الطريـق او نحـو ذلـك مـن الجـرائم الكـبرى الـتي تـستهدف خـير خلـق الله.
فالإنسان محـور الخليقـة ،والمؤمن عنـد الله أعظـم مـن الكعبـة، وأعظـم حتـى مـن الملائكـة في بعـض حالاتـه، ومن قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً.
وقـد أجـازت الـشريعة للفـرد بـأن يـدافع عـن نفـسه، وجعلـت دم المعتـدي هـدراً لا قيمـة لـه؛ لأنـه دم غـير محترم ولا يمت إلى الإنسانية بصلة.
وقـد ورد في الحـديث عـن المعـصومين (ع) (اللـص

محـــارب لله ولرســـوله فـــاقتلوه). وكـــذلك ورد ما مضمونه ان من اعتدى على الآخرين فتضرر فلا شيء له. كما وردت أحكام شرعية مشددة على من يحمـل الـسلاح ويقطـع الطريـق لإخافـة النـاس أو إيـذائهم ،فراجـع أبـواب حـد المحـارب في كتـاب الوسائل وغيرها، وكذلك أبواب الدفاع عن النفس في مقدمة كتاب القصاص.

المبحث الثالث
السهر الإيجابي في الليل

ونعني بالإيجابية هنا أن يكون السهر مفيداً ومباركاً، وأن يؤدي الى تحصيل الأجر والثواب، وهذا له عدة صور وكيفيات على حسب اختلاف مناشئ السهر ودواعيه، وسنجعل كلامنا هنا ضمن محورين:

المحور الأول- سهر العبادة بالمعنى الأخص

ونقصد هنا السهر لأجل العبادة بمعناها المتعارف بحسب الاصطلاح، من قبيل الصلاة او كثرة السجود او الدعاء او الاستغفار او الذكر بمختلف أنواعه من تسبيح أوتهليل او نحوهما، او قراءة القرآن، أو غير ذلك مما يدخل في عنوان العبادة بمعناها الخاص.

وقد وردت عدة آيات وروايات في فضل قيام الليل وإحيائه بالعبادة والذكر فمن ذلك قوله تعالى:

﴿قَم الليلَ إلا قَليلاً، نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنهُ قليلاً، أو زِدْ عليه ورَتِّل القُرآنَ تَرتِيلاً﴾ (المزمل: ٢-٤)

فهنا تأكيد على عنوان القيام في الليل الشامل للصلاة والتسبيح والاستغفار ونحوها.

وكذلك قوله تعالى:

﴿تَتَجافَى جُنُوبُهم عَن المَضَاجعِ يَدعُونَ ربَّهُم خَوفاً وَطَمَعاً﴾ (السجدة: ١٦) ،حيث ورد في بعض الروايات انه ذكر الرسول محمد (ص) قيام الليل ففاضت عيناه حتى تحادرت دموعه، فقال: (تَتجافَى جُنُوبُهم عَن المَضَاجعِ).

وقد فُسرت هذه الآية في بعض الأخبار بصلاة الليل حيث ورد عنهم (ع) ما مضمونه ان الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها ،وإنما قال ﴿فَلا تعلَمُ نَفسٌ مَا أُخفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعيُنٍ جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧)

وفي رواية أخرى عن الباقر (ع) (في معنى تَتَجافَى جُنُوبُهم عَن المَضَاجعِ) قال: نزلت في امير المؤمنين (ع) واتباعه من شيعتنا، ينامون في اول الليل، فإّا ذهب ثلثا الليل او ما شاء الله فزعوا الى ربهم راغبين راهبين طامعين فيما عنده فذكرهم الله في كتابه لنبيه

(ص) وأخبره بما أعطاهم، وانه أسكنهم في جواره، وأدخلهم جنته، وآمن خوفهم، وآمن روعتهم.

وفي حديث آخر عن النبي (ص): ما زال جبرئيل يوصيني بقيام الليل حتى ظننت ان خيار أمتي لن يناموا.

وقد جاء في علل الشرائع انه سُئل السجاد (ع) ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجهاً؟ فقال (ع): لأنهم خلوا بالله فكساهم الله من نوره.

وفي رواية أخرى عن النبي (ص) (إذا قام العبد من لذيذ مضجعه، والنعاس في عينه، ليرضي ربه بصلاة ليله، باهى الله به الملائكة، وقال: أما ترون عبدي هذا قد قام من لذيذ مضجعه لصلاة لم أفرضها عليه، اشهدوا أني قد غفرت له.

وفي حديث بنفس المضمون: ان العبد ليقوم في الليل فيميل به النعاس يميناً وشمالاً، وقد وقع ذقنه على صدره، فيأمر الله تعالى أبواب السماء فتفتح، ثم يقول للملائكة: انظروا الى عبدي ما يصيبه في التقرب الي بما لم أفترض عليه راجياً مني لثلاث خصال: ذنباً أغفره له، أو توبة أجددها له، أو رزقاً أزيده فيه. اشهدوا ملائكتي اني قد جمعتهن له.

وفي الحقيقة فإنه لا يشترط في قيام الليل ان يكون سهره متصلاً، فإنه يكفيه ان يقوم ويؤدي ما أمكنه ثم ينام ليستريح،

وبعدها يقوم ثانيةً ويؤدي ما أمكنه ثم ينام ،وهكذا حسب حاله وقابليته ووضعه الخاص والعام.

ثم ان العبادة في الليل لها صور وكيفيات عديدة كما قلنا؛ وقد ذكر لنا الله عز وجل جملة من هذه الكيفيات، منها:

﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَيلِ فَسَبِّحْ﴾ (طه: ١٣٠).

﴿يَتلُونَ آياتِ الله آناءَ الليلِ وَهُم يَسجُدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣)

﴿وَمِنَ اللَيلِ فَتَهَجَّد بِهِ نافلَةً لَكَ عَسى أن يَبعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحمُوداً﴾ (الإسراء: ٧٩)

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانتٌ آناءَ الليلِ سَاجداً أو قائماً يَحذَرُ الآخرَةَ ويَرجُو رَحمَةَ رَبِّه، قُلْ هَل يَستَوي الذينَ يَعلَمُونَ والذينَ لا يَعلَمونَ، إنَّمَا يَتَذَكرُ أُولُوا الألبَابِ﴾ (الزمر: ٩)

﴿كَانُوا قَليلاً مِنَ اللَيلِ مَا يَهجَعُونَ، وبِالأَسحَارِ هُم يَستَغفرُونَ﴾ (الذاريات: ١٧-١٨)

ولعل من أهم صور العبادة الليلية: صلاة الليل، فقد ورد في فضلها الكثير، وورد انها شرف المؤمن، وإن للمؤمن في الدنيا ثلاث فرحات او كفارات منها التهجد بالليل والناس نيام؛ وفي بعض الروايات ان النبي (ص) لولا انه يشقُّ على أمته لأوجبها عليهم.

بقي ان نشير الى ان الليالي وان كانت عموماً محلاً للطاعة والتقرّب الى الله عز وجل ،حيث يخلو العبد بربه بعيداً عن ضوضاء الحياة وضجيج العباد، إلا انه توجد لبعض الليالي خصوصية خاصة وميزة مميزة؛ من قبيل ليالي القدر وليالي الجمعة، وليلة النصف من شعبان التي ورد انه (من أحياها لم يمت قلبه يوم تموت فيه القلوب).

ولكن ونحن نستعرض هذه الأحاديث الشريفة ،ونتخيل روحانية هؤلاء الذين يقضون لياليهم بهذه الطاعات العبادية، وهم فرحون مستبشرون، يؤسفنا أن نتذكر أولئك المساكين الذين يضيعون ليلهم بالفراغ والغفلة؛ وكأننا نستمع الى مناجاة الإمام علي (ع) وهو يقول:

إلهي حليفُ الحبِ في الليلِ ساهرٌ ... يناجي ويدعو والمغفلُ يهجعُ
إلـهي وهـذا الخـلقُ مـا بين نائمٍ ... ومـنتبهٍ فـي ليـله يتـضرعُ

كما يزعجنا ويؤلمنا في نفس الوقت ان نتذكر أولئك المنحرفون الضالون، الذين يقضون ليلهم بالفساد والمنكرات ،واللهث كالكلاب وراء الملذّات والشهوات المحرّمة؛ فلا هم يربحون شيئاً من هذه المنكرات دنيوياً؛ ولا هم يستحقون ان يلطف الله بهم

ويرأف لحالهم؛ فهم في حسرة بعد حسرة، وندامة إثر ندامة ؛ ما لم يتوبوا توبة صادقة، ويستغفروا الله استغفاراً حقيقياً..

المحور الثاني- سهر العبادة بالمعنى الأعم

وهذا له عدة صور ودواعي اهمها ما يلي:

١- السهر بداعي التأمل والتفكر في نعم الله وآلائه، او في ملكوته، او في أي مجال يربطه بالخالق عز وجل، حتى وإن كان تدبره وهو في فراشه وتحت دثاره.
ولا يخفى ان التأمل عبادة، والتفكر عبادة، وقد ورد في بعض الاخبار أن تفكر ساعة خير من عبادة سنة،وفي رواية أخرى أنه خير من قيام ليلة. ثم ان الله عز وجل مدح اولي الألباب كثيراً في القرآن، ومعلوم ان التفكر والتأمل من أوضح علامات أولي الألباب.

٢- السهر بداعي مساعدة الفقراء وإيصال صدقات السر اليهم، كما كان يفعل إمامنا علي بن الحسين (ع) تطبيقاً لقول الله عز وجل:

﴿الـذينَ يُنفِقـونَ أمـوَالـهُم بالليـلِ والنهـارِ سـرّاً وعَلانيـةً فَلَهُـم أَجرُهُم عِندَ ربِّهِم﴾ (آل عمران: ٧٤).

وقد ورد في الروايات ان صدقة السر أو الليل تطفئ غضب

الرب، كما ان التفريج عن المؤمنين وقضاء حوائجهم فيه أجر عظيم، ومن فرّج عن مؤمن فرّج الله عنه، وخير الأمور أحمزها أي أشدّها.

٣- السهر بداعي مذاكرة العلم او التفقه في الدين، او لأجل كتابة بحث او تحقيق عن مسألة نافعة دينياً، فإن طلب العلم محبوب ومبارك في كل حين.

وفي الحديث انه لا سهر إلا في ثلاث (تهجدٌ في قرآن، او في طلب العلم، أو في زفاف عروس).

وفي رواية أخرى انه (لا بأس في السهر في الفقه)، و(لا بأس) هنا يراد منها بحسب الظاهر الإرشاد الى المندوبية، كما تقول لأحدهم مشجعاً ومرشداً (لا بأس أن تذهب لزيارة الحسين (ع)) فانتبه وتفطن.

٤- السهر بداعي إحياء مجالس الموعظة والذكر الصالح، فإن مثل هذه المجالس يحبها الله تعالى، ويحبها المعصومون (ع) كما ورد في الأحاديث، فهي إيجابية ومباركة وإن لزم منها السهر.

٥- السهر بداعي الجهاد في سبيل الله عز وجل، سواء كان بنحو المرابطة في الحدود (الثغور) الداخلية

والخارجية، او كان بنحو حراسة المؤمنين للمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم ومصالحهم، او كان بنحو القتال والدفاع عن الإسلام والمسلمين كما حصل في صفين حيث كان القتال يستمر أحياناً حتى الليل.

وقد ورد في الحديث (كل عين باكية يوم القيامة إلا عينٌ سهرت في سبيل الله، وعين فاضت من خشية الله، وعين غضّت عن محارم الله).

٦- السهر بداعي مساعدة الآخرين في مشكلة أو مرض أو نحوهما، سواء كانت مساعدتهم حاصلة فعلاً، او انها كانت معدة وجاهزة بحسب القوة والشأنية، كالطبيب ورجل الإطفاء ونحوهم ممن يضطر لسهر الليالي لأجل مساعدة الناس ،او لأجل الاستعداد والجهوزية للامور الطارئة والعياذ بالله عز وجل.

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق (ع) (المؤمنون أخوة بنو أب وأم، فإذا ضرب على رجل منهم عِرقٌ ، سهر الآخرون).

٧- ذكرنا في مقام سابق ضمن السهر المباح ان السهر قد يحصل نتيجة مشكلة او ألم او نحو ذلك، فإذا صحح الفرد نيّته في مثل هذه الأحوال، وسلّم امره الى الله

ربه، ولم يجزع ولم يرتكب معصية، فإنه سيكون سهره مباركاً ومأجوراً ايضاً حيث ورد (ان سهر ليلة من مرض او وجع أفضل وأعظم من عبادة سنة).

٨- سهر الزوجين في ليلة الزفاف، بل مطلقاً على الأرجح؛ حيث ورد انه (لا سهر إلا في ثلاث منها: زفاف عروس) او في رواية أخرى (عروس تهدى الى زوجها). وفي بعض الأخبار ان مثل هذه العلاقة المقدسة برباط الزوجية تباركها الملائكة خصوصاً اذا كانت أصلاً او بعناوين ثانوية قربة الى الله تعالى.

٩- السهر بداعي أداء عمل معين، يضطر الى فعله ليلاً؛ فإن العمل وطلب الرزق والسعي في الكد من أجل العيال، مما ندب اليه الخالق عز وجل، وأجزل فيه الثواب والعطاء.

فإذا قضى الفرد ليلته بمثل هذه الأعمال من قبيل الخياطة او الصياغة او نحوهما من أسباب الرزق الحلال، فإنه سيكون قد نفع واستفاد؛ وقام بجهد عقلائي مشروع بل مأجور في بعض الأحيان، وعندئذٍ يكون سهره إيجابياً من هذه الناحية.

إلى هنا ينتهي ما أردنا ذكره وبيانه في هـذا المختصر المـوجز، نسأل الله عز وجـل ان يجعلـه نافعـاً مقبـولاً،وأن يرزقنـا العمـل بمـا نقولـه أونتعلمه من الخيرات.. والحمد لله أولاً وآخراً.

حيدر اليعقوبي

١٤/ربيع الاول/١٤٢٨هـ

فهرست المحتويات